سيكولوجية الجماهير والسلطة

كان لابد من البحث في أحد أهم فروع العلم الحديث وهو علم النفس الاجتماعي، ويهتم بالدراسة العلمية للإنسان ونفسيته ككائن اجتماعي، وهدفه بناء مجتمع أفضل قائم على فهم سلوك الفرد والجماعة.

ووسط بحثي في هذا المجال عثرت على الكتاب المؤسس لهذا العلم وهو كتاب "سيكولوجية الجماهير" لجوستاف لوبون، ويذكر في بدايته أن "مجمل الخصائص المشتركة المفروضة من قبل الوسط المحيط والوراثة على كل أفراد شعب ما تشكل روح هذا الشعب".

كانت ظاهرة الجماهير وقت ظهور الكتاب قد بدأت تتزايد وخاصة بعد الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث على المسرح الأوربي، وعلى الرغم من صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب منذ فترة طويلة إلا أن ما ورد فيه لا زال قابلاً للتطبيق النظري والعملي.

يبين جوستاف لوبون أن تأثير الجماهير بدأ بعد سببين أساسيين، الأول هو تدمير العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية التي اشتقت منها كل عناصر حضارتنا.. والثاني هو خلق شروط جديدة كليًا بالنسبة للوجود والفكر وقد تولدت عن الاكتشافات الحديثة للعلوم والصناعة.

ونستنتج من ذلك أن أحد أهم الاختلافات بين العالم القديم والعالم الحديث هو مفهوم اليقين وهو المسيطر بالعالم القديم، بينما الشك هو مفهوم العالم الحديث، ومن هنا أصبحت العلمانية كظاهرة فكرية ونزعة نفسانية أحد سمات العصر الحالي وهي ترتبط ارتباطًا وثيق الصلة بظهور مفهوم الجماهير.

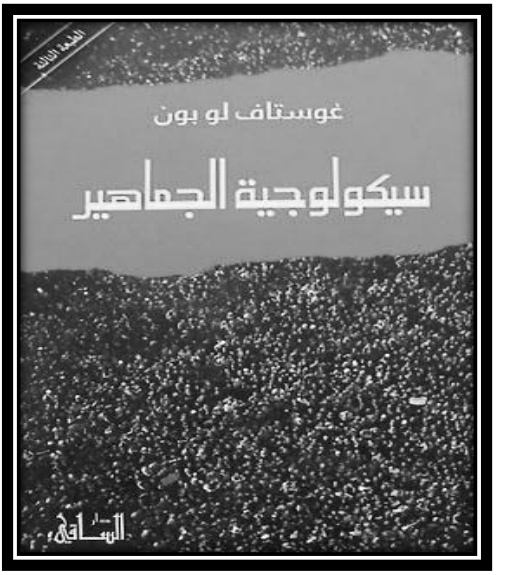

كان كتاب لوبون يعبر عن هلع حقيقي من الجماهير وأهمية السيطرة عليهم، ولعل ذلك يظهر من فقرة مهمة وردت بالكتاب وهي أن "تدمير الحضارات العتيقة قد مثل حتى هذه اللحظة الدور الأكبر الذي تلعبه الجماهير. والتاريخ يعلمنا أنه عندما تفقد القوى الأخلاقية التي تشكل هيكل المجتمع زمام المبادرة من يدها، فإن الانحلال النهائي يتم عادة على يد هذه الكثرة اللاواعية والعنيفة التي تدعى بحق البرابرة".

ويضرب المفكر الكبير مثالاً مهمًا لمعرفة نفسية الجماهير التي تشكل المصدر الأساسي لرجل الدولة وهو "إذا أراد مشرع أن يفرض ضريبة جديدة فهل ينبغي عليه أن يختار الضريبة الأكثر عدالة نظريًا؟ بالتأكيد لا فالضريبة الأكثر ظلمًا يمكنها أن تكون الأفضل عمليًا بالنسبة للجماهير إذا كانت الأقل مرئية والأقل ثقلا من حيث المظهر" وهو ما يوضح مثلاً أن فرض ضرائب موزعة على سلع استهلاكية متنوعة بصور مختلفة أفضل كثيرًا من فرض ضريبة على المرتبات ولو كانت قليلة!!.

وعلى الرغم من أن نظرية لوبون قد لاقت ذيوعًا وانتشارًا كبيرًا إلا أن الأمر كان يحتاج لعالم نفس يؤسس للموضوع من الجانب النفسي خاصة أن جوستاف لوبون كان عالم اجتماع ومؤرخ، وربما هذا ما دفع سيجموند فرويد لإصدار كتاب مهم لايقل أهمية وهو "علم نفس الجماهير" – صدر بعد ربع قرن من صدور كتاب لوبون – ليتناول الظاهرة من منظور علم النفس.

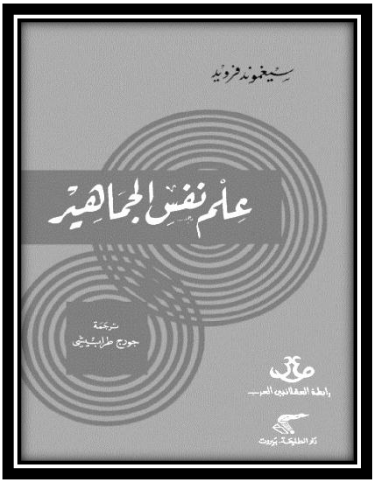

كان فرويد يستخدم أدوات مختلفة عن السابق، فبدلا من مفاهيم العرق والتقاليد والأعراف والعاطفة الدينية عند لوبون، يستخدم فرويد مفاهيم من المعجم الخاص بالتحليل النفسي مثل الأنا والأنا الأعلى والإسقاط والنكوص، فضلاً عن الأسطورة التحليلية النفسية عن جريمة قتل الأب وتأثير ذلك على نفسية الجماهير.

ويركز في كتابه على الجماهير الاصطناعية، فيذكر أن الكنيسة والجيش جمهوران اصطناعيان، أي: جمهوران يقوم تلاحمهما على إكراه خارجي من شأنه في الوقت نفسه أن يمنع تعديل بنيتهما، وينخرط الفرد في جمهور من هذا النوع دون أن تؤخذ مشورته وموافقته مسبقًا، ويشير إلى أن مثل تلك الجماهير الرفيعة التنظيم تكون محمية من كل إمكانية انحلال وتبقى لفترات طويلة.

وعلى الرغم من أهمية الكتابين السابقين إلا أنه لايمكن الاكتفاء بهما لسبب رئيسي وهو التقدم الإنساني ومشكلاته؛ فالتحديات، والعقبات، والمشكلات السياسية، وحقوق الإنسان، والتطورات الدولية، والتوقعات الاقتصادية، والحروب والفتن، والفساد الحكومي، والنمو المتزايد في أعداد السكان؛ ومن ثم الزيادة في أعداد المهمشين سياسيًا، وزيادة الفجوة التكنولوجية،

والتفاوت الكبير في مستوى المعيشة كان لها دور كبير في الاتجاه نحو دراسة ظاهرة الجماهير بصورة أكبر، كما آثرت زيادة أعداد مستخدمي الإنترنت ليشكلوا فكرًا، ورأيًا معارضًا أو مؤيدًا، ولتنتج ممارسات ديمقراطية على الإنترنت كالتصويت الإلكتروني والحكومة الإلكترونية؛ ومن ثم الحديث عن أخلاقيات الإنترنت وهي موضوعات تحتاج دراسة عميقة متشعبة الأطراف للإلمام بأبعاد العلاقات المتشابكة والمترابطة عند تخطيط السياسات الإعلامية والثقافية الجديدة للجماهير.

ومع تطور علم النفس بدأ يظهر فرع مهم ملائم جدًا لمبحث سيكولوجية الجماهير وهو علم النفس السياسي الذي يهتم بالعلاقة بين الجماهير والسلطة الحاكمة وكيفية المواءمة بينهما في إطار الدولة المدنية الحديثة.

مجهودات ومحاولات وكتابات عديدة في مجال علم النفس السياسي منشورة ومتاحة للجميع، لعل أبرزها المجهود الضخم الذي قام به المركز القومي للترجمة لترجمة كتاب "المرجع في علم النفس السياسي" بجزئيه، ويحاول الكتاب الاستفادة من الحقائق النفسية في مجال السياسة، وتطبيقاتها الحديثة مثل الحرب النفسية، ويوضح الكتاب أن نشأة هذا العلم كان تجسيدًا لمحاولة الإفلات الفكري من مأزق الاختيار بين المادية الماركسية، والمثالية الميتافيزيقية بتبني الفلسفة النقدية التجريبية.

وأشار الدكتور قدري حفني في مقدمة هذا الكتاب إلى نقطة غاية في الأهمية وهي علاقة علم النفس بالسياسة في مصر، وارتباط الرواد مثل يوسف مراد ومصطفى زيور بالعائلة المالكة، فقد صدر العدد الأول من مجلة علم النفس عام ١٩٤٥ برعاية الملك فاروق والأميرة شويكار وسط جو مشحون بالمظاهرات والمعارضة السياسية للنظم الملكي، كما خصصت المجلة عددًا خاصًا بعد حرب ١٩٤٨ عن موضوع علم النفس والحرب.

وبعد ثورة يوليو تم إدخال الخدمات النفسية إلى الجيش بالاعتماد على كوادر علم النفس، وإنشاء إدارة لتحليل الرأي العام في مصلحة الاستعلامات التي كان يرأسها عبد القادر حاتم.

أما كتاب "علم النفس السياسي - أسس ثقافة أحادية وتعددية" وهو من إعداد مجموعة من الباحثين بإشراف ستانلي رينشون وجون دوكيت وقام بترجمته عبد الكريم ناصيف، فيتعرض لموضوع مثير للاهتمام وهو العلاقة بين الثقافة، وعلم النفس، والصراع السياسي العالمي، ليكشف لنا الكتاب واحدةً من أشد،

إن لم تكن أَشَدَّ القضايا المعاصرة تَفَجُّرًا على الصعيد المحلي والدولي، ألا وهي الأسس الثقافية للتعصب والصراع العرقي.

كتاب آخر صدر حديثا عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بعنوان "علم النفس السياسي: رؤية نقدية" لكريستيان تيليغا وترجمة أسامة الغزولي، وعلى الرغم من تركيزه على سياسات وقضايا أوروبية، إلا أنه يشير لقضايا مهمة من الناحية المعرفية والنظرية والمنهجية لتفسير السلوك الإنساني في مجال السياسة، ومن أبرز ما أشار إليه الكتاب قضية الاتصال والخطاب السياسي والإعلام الجماهيري، فالخطاب السياسي كما يذكر الكاتب هو خطاب جرى إنتاجه بعناية في سياق اجتماعي لتحقيق الدلالة السياسية.

كما صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات كتاب "علم النفس السياسي" ضمن سلسلة ترجمان، للكاتب دايفد باتريك هوتون. بترجمة أنيقة لياسمين حدّاد، ويبين الكتاب أنّ هناك نمطين أساسيين من المقاربات لفهم السلوك السياسي الإنساني: أوّلهما مقاربة موقفية تعدّ البيئة أو الموقف المحيط بالفرد، أكثر أهمية في تشكيل سلوك الفرد أو دوره في المجال العام من نزعاته أو خصائصه الشخصية أو انتمائه الحزبي؛ أمّا الأخرى فهي المقاربة النزوعية التي ترى أنّ شخصية الفرد وما لديه من اعتقادات وقيم أو حتى موروثات جينية، أكثر تأثيرًا في هذا المضمار. بل يمكن، على العموم، النظر إلى السلوك السياسي على أنّه حدث مدفوع بأسباب داخلية أو مؤثرات خارجية، أو بمزيج من هذين النوعين.

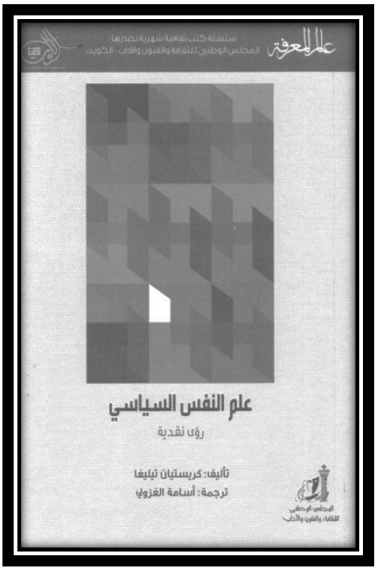

ومن سيكولوجية الجماهير إلى سيكولوجية السلطة صدر كتاب مهم للكاتب سالم القمودي بعنوان "سيكولوجية السلطة - بحث في الخصائص النفسية المشتركة للسلطة"، ويؤكد فيه الكاتب على أن أيُّ سلطة تقوم عن أساسٍ نفسي عقلي وتمارس فعلها انطلاقًا من دوافع وموجهات وتجارب وخبرات نفسية عقلية ظاهرة أو باطنة، ولكي تتمكَّن هذه السلطة من بسط نفوذها وتحقيق أهدافها تحتاج إلى إيديولوجية تمثِّل البعد المعلن من السّلطة.

ويضع الكاتب نقاطًا مهمة لدراسة سيكولوجية السّلطة، فيجب أنْ نفهم السلطة التي نخضع لها، أو التي تحاول أنْ تخضعنا لها، وأنْ نعرف ماذا تريد منا، وما يمكن أنْ تحقِّقه لنا، وأنْ نطمئِنَّ إلى خضوعنا لها، أو نرفض هذا الخضوع ونقاومه.

كانت تلك الكتب هي أبرز ما لفت نظري في هذا المجال الرائع والمثير للقراءة والبحث، ولكن رغم أهمية الكتب السابقة إلا أن معظم النماذج التي تم التركيز عليها تتضمن نظريات وأمثلة أوروبية لا نماذج وتجارب عربية ومصرية.

ومن هنا تأتي أهمية كتاب علم النفس السياسي رؤية مصرية عربية للدكتور محمد المهدي، ويضع الكاتب يده بقسوة على مفتاح الشخصية العربية، وهو ليس صعب المنال حيث إنه وارد فى الكثير من أدبياتنا وتراثنا بشكل مكثف وملفت للنظر، فعلى مدى مراحل التاريخ يطلق لفظ "الرعية" على الشعوب العربية، ولايتصور أن يكون لهؤلاء الرعية رؤية أو إرادة أو اختيار.

وحول العلاقة بين الجماهير والسلطة يذكر المهدي أنه حين تكون السلطة منطقية وشرعية وقائمة على الشورى وملتزمة بها، وحين تكون الجماهير على درجة جيدة من التعليم والثقافة ولديها ملكة التفكير النقدي يصبح الأمر علاقة سلطة ناضجة بجماهير ناضجة فيسود العقل وتحتل الموضوعية مساحة كبيرة فى العلاقة بين الطرفين فلا تتحول إلى حب حتى التقديس والاستلاب أو إلى كراهية حتى التدمير. ونتاج ذلك منظومة سياسية واجتماعية تتسم بالسلام وارتفاع معدلات الإنتاج والنمو والإبداع.

وفي عصر مليء بالمصفقين والمنافقين ويتضاءل فيه دور المثقفين الجادين والتنويريين الحقيقيين الذين يحاربون الجهل والتدين الزائف والفساد الفكري الذي ينعكس على مختلف جوانب

الحياة ويتم تصديره للجماهير؛ تأتي أهمية قراءة كتاب "لماذا يصفق المصريون؟" للدكتور عماد عبد اللطيف.

ويبدأ الكاتب بالبحث في أعماق التاريخ عن بدايات التصفيق، فهناك إشارات عديدة لوجوده في بعض المجتمعات القديمة. فكثير من النقوش المصرية القديمة تُظهر المصريين وهم يصفقون خاصة بمصاحبة الرقص والغناء. وقد كان التصفيق في مصر الفرعونية أداة الإيقاع الأساسية، وكان يُصاحِب عادةً حفلات الرقص والغناء التي أبدع في فنونها المصريون.

أما في الحضارة اليونانية فقد كان التصفيق هو الوسيلة لإظهار استحسان الجمهور وإعجابهم بالعروض المسرحية أو الموسيقية أو الغنائية التي يشاهدونها. بل إن اليونانيين ربما كانوا أقدم الشعوب التي عرفت مهنة المصفِّق المأجور؛ أي الشخص الذي يحصل على مقابل مادي نظير التصفيق المتحمس لمسرحية ما أو أداء موسيقي ما. فقد كان بعض المؤلفين المسرحيين الذين يعرضون مسرحياتهم على مسرح ديونيسوس يؤجرون مجموعات من الجماهير تقوم بالتصفيق الحار لمسرحياتهم أمام لجان تحكيم المسابقات المسرحية! وتذكر كتب التاريخ أن نيرون طاغية روما الشهير، أسس مدرسة خاصة لتعليم أصول التصفيق، وأنه كان يأمر ما يقرب من خمسة آلاف فارس وجندي من أفراد الجيش بحضور الحفلات الموسيقية التي كان يغني فيها وهو يعزف على القيثارة؛ ليصفقوا له بعد أن ينتهي من الغناء والعزف!.

كما يوضح الكاتب أن العرب في عصر ما قبل الإسلام عرفوا التصفيق بوصفه ممارسة شعائرية تؤدَّى أمام الحرم المكي. فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالتصدية في قوله تعالى (وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) هو التصفيق.

وأشار الكاتب إلى أن التصفيق ممارسة تربوية يتم نقلها من جيل إلى جيل. يعلمها الوالد للولد، والسلف للخلف وكما أن الأم تحلق من السعادة حين يحبو طفلها، أو يخطو أولى خطواته، أو ينطق أول كلمة، فإنها تسعد به حين يتعلم كيف يضرب يدًا بيد ويصفق مبتهجًا، كما أن التصفيق ممارسة ثقافية؛ لذا تختلف طريقة استخدامه ووظائفه وكيفية تأويله من ثقافة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر. ومع ذلك فقد أدى كون التصفيق شعيرةً تواصلية في كثير من أشكال التواصل الجماهيري في الوقت الراهن إلى تحوله في بعض أنشطة التواصل إلى عرف مستقر.

ومن أهم النقاط التي أشار إليها الكتاب أن فهم ظاهرة التصفيق في التواصل الجماهيري في المجتمع المصري المعاصر يمثل مدخلا مثاليًا لفهم خصائص التواصل الجماهيري في المجتمع المصري من ناحية، وسمات هذا المجتمع من ناحية ثانية، وطبيعة

المصريين المعاصرين أنفسهم من ناحية ثالثة. فالتصفيق الجماعي في السياسة والفن قد يكون رمزًا للرضا والتأييد، أو نتاجا للقهر والإجبار أو تجليا للخداع والتضليل. وفي جميع الحالات فإنه من الأهمية بمكان معرفة متى وكيف ولماذا ترضى جماعة المصريين، أو تخضع للقهر والإجبار، أو تنطلي عليها الخدع والألاعيب. وتزداد هذه الأهمية في عصر ثورة التواصل الجماهيري، التي جعلت من السهولة بمكان نفاذ الخطاب – أي خطاب – إلى حشود لا نهائية، بواسطة وسائط لم يعد من الممكن احتكارها مثل الإنترنت والإذاعات الشخصية.. إلخ، تبث رسائلها في سماوات لم يعد متاحا إغلاقها. أما التصفيق الفردي في مصر فهو غالبًا ما يكون امتدادًا لتراث طويل في التواصل الفردي، نحتته الجماعات القديمة، وحفظته العادات والتقاليد، وانتقل من الأجداد إلى الأحفاد مع لون البشرة وطيبة القلب.

ونختم تلك الجولة في أدبيات علم النفس السياسي بكتاب مهم بعنوان "سيكولوجية السياسة العربية – العرب والمستقبليات" للدكتور محمد أحمد النابلسي وهو أحد أهم الأطباء النفسيين العرب وأكثرهم اهتمامًا بفرع الطب النفسي – الاجتماعي بمتفرعاته بما فيها الطب النفسي السياسي، ويربط فيه بين علم المستقبليات والعلوم النفسية، فالتعرف إلى نمط سلوك فرد أو جماعة معينة من شأنه أن يساعدنا على توقع ردود الفعل المحتملة لصاحب هذا السلوك؛ وبهذا تتبين لنا العلاقة الوثيقة والعضوية بين السيكولوجية وبين المستقبليات.